

## الإجراءات الوقائية لتلقي النص الشعري القديم

- شعر المغرب والأندلس نموذجا -

أ. سعاد بولشفار

جامعة عمار ثليجي

الأغواط

من الملتقيات التي احتضنها قسم اللغة العربية بجامعة الأغواط، في 7-8 - 9 من شهر نوفمبر 2009 ملتقى بعنوان "تلقى النص الشعري القديم"، برئاسة د " مسعود عامر"، وبمشاركة من أساتذة القسم، وأساتذة من جامعات الوطن، من الجزائر العاصمة، من عنابة، من جيجل، من تلمسان، من سعيدة...و قد أبدى الحضور في قاعة الوثام تفاعلا مع الموضوع، فكانت الآراء المختلفة التي أثرت الملتقى، وبيّنت نجاحه . ولأهمية الموضوع ارتأيت أن أدلي بدلوي بهذا المقال المتضمن للخطوات الإجرائية لفهم النص وتلقي الشعري القديم، وقد اخترت نصوصا من عصر المغرب والأندلس كنموذج .

بداية يرى "د . مصطفى ناصف " فن القراءة هو فن مواجهة الصعوبات"<sup>1</sup>، وذكر أيضا " ما أكثر ما تشبه القراءة بالمصارعة "<sup>2</sup>. أما " النص يمثل لحظة أو ومضة شعرية انطلقت، فيسعى القارئ جاهدا لإعادة تمثيلها أو تمثيلها، وحين يفقد المتلقي (القارئ) قدرته على إنتاج النص بصورة متعددة، لا بصورة واحدة، يصبح قارئاً سلبياً، وهو كما - يقول عبد القاهر الجرجاني - مجرد راوية، بل هو أشبه بالدفتري "<sup>3</sup>.

للتواصل مع النص الشعري القديم عوائق تجعل المتلقي في واد والنص المتلقى في

واد آخر:

أن يخشى المتلقي من التواصل مع النصوص الشعرية والنثرية القديمة . و لي تجربتي في هذا الحقل ؛ فبعد أن اخترت موضوع الدكتوراه الخاص بمقدمات المصادر، بدا لي في الأول النص النثري القديم نصا مغلقا . ولكن بعد القراءات المتكررة، والدراسة والإحاطة إلى حد ما بلغة العصر - عصر المغرب والأندلس - اعتدت على التواصل مع النص القديم خاصة النثري . وعليه فإن الخطوة الإجرائية المعتمدة كي يحدث التلقي هي الاستمرارية في التواصل مع النص بالدراسة والاهتمام وكسر الخوف، والإحاطة بلغة العصر في حدود المستطاع . من بين النصوص النثرية التي تبدو من القراءة الأولى غامضة، مقدمة "البحر المحيط" "لأبي حيان الأندلسي" منها قوله : "وأذيل في تطلاب ذلك المال المصون، وأرتع في رياض وارفة الظلال، وأكرع في حياض صافية السلسال، وأقتبس بها من أنوارهم، وأقتطف من أزهارهم، وابتلع من صفحاتهم، وأتأرج من نفحاتهم، وألقط من نثارهم ... فجعلت العلم بالنهار سحيري، وبالليل سميري..."<sup>4</sup>

من الأمور التي بدت لنا من خلال الدراسة الجامعية ؛ أن يكتشف الواحد منا صنفا من الطلبة المنتمين إلى قسم اللغة العربية الذين لا يتقنون قراءة النص الشعري إطلاقا، وكأن الحروف التي كتب بها النص ليست عربية ؟ وهذا يعبر بوضوح عن الانفصال الكلي عن النص . أنا أقول هذا الكلام عن تجربة ، إذ كانت من بين المختارات الشعرية موشح "ابن زهر" الذي قال فيه :

أيها الداعي إليك المشتكى  
كم دعوناك وإن لم تسمع

ونلتم همت في غرته

وشربت الراح من راحته

كلما استيقظ من غفوته

جذب الزق إليه واتكى  
وسقاني أربعا في أربع<sup>5</sup>

تفاجأت بأحد الطلبة الذي لا يحسن قراءة الكلمة، فما بالك بالجملة ؟. بالمقارنة فإن القليل من الطلبة من يحسن القراءة، ويتلقى النص الشعري بقلب وبفهم . أما الأغلبية فهم يقرؤون الجملة بتقطع، لا يستقيم معها المعنى . وعليه فإن الخطوة الإجرائية الثانية هي إتقان القراءة بفصاحة وطلاقة .

ثالثا : شرح مفردات النص الغامضة، ولنقل أولا يجب أن ندرك أن النصوص الشعرية القديمة ليست كلها غامضة ؛ فمنها نصوص هي قريبة من قاموسنا المستعمل،

مثال ذلك قول "عبد الرحمن الداخل" :

|                                      |                          |
|--------------------------------------|--------------------------|
| أقر من بعضي السلام لبعضي             | أيها الراكب الميمم أرضي  |
| وفؤادي ومالكيه بأرض                  | إن جسمي كما تراه بأرض    |
| وطوى البين عن جفوني غمضي             | قدر البين بيننا فافترقنا |
| فغسي باقترابنا سوف يقضي <sup>6</sup> | قد قضى الله بالبعد علينا |

ففي قوله الكثير من الوضوح ؛ إذ يعبر عن شوقه إلى موطنه الأول بعد أن أرغم على الفراق .

كذلك قول الشاعر "أبي المخشي عاصم بن زيد" يصف حالته، ويحكي قصته مع العمى :

|                                       |                       |
|---------------------------------------|-----------------------|
| أن قضى الله قضاء فمضى                 | خضعت أم بني للعدا     |
| مشيه في الأرض لمس بالعصا              | ورأت أعمى ضريرا إنما  |
| - وهي حرى - بلغت مني المدى            | فاستكانت ثم قالت قولة |
| ما من الأدواء داء كالعمى <sup>7</sup> | ففؤادي قرح من قولها   |

بعد عرضنا لهذه الأبيات على الطلبة وقفنا على أن الغموض لا يكمن في الألفاظ بل يكمن في المعنى المتبادر إلى أذهانهم ؛ بخصوص المصاب بالعمى، فمنهم من قال إن

الزوجة هي التي أصيبت بالعمى وغاب عن أذهانهم بذلك المعنى ؛لعدم التأمل في ألفاظ هذا النص الشعري البسيط في بنائه، الصادق في عاطفته . ولو انتبهوا إلى قول الشاعر "و رأت أعمى ضريرا " لما وقعوا في الخطأ ؟ أي لما قالوا إن الزوجة أصيبت بالعمى . وهذا كذلك من العوائق لتلقي النص الشعري.

كذلك من النصوص التي لا تحتاج إلى شروحات كثيرة، قول الشاعرة " حسنة التيمية":

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| إلى ذي الندى والمجد سارت ركائي  | على شحط تصلى بئار الهواجر      |
| ليجير صدعي إنه خير جابر         | ويعنني من ذي الظلّامة جابر     |
| فبائي وأيتامي بقبضة كفّه        | كذي ريش أضحي في مخالِب كاسر    |
| جدير لمثلي أن يقال مروءة        | لموت أبي العاصي الذي كان ناصري |
| سقاء الحيا لو كان حيا لما اعتدى | عليّ زمان باطش بطش             |

قادر<sup>8</sup>

أشرنا إلى أن هذا النص لا يحتاج إلى شروحات كثيرة، لأنّ الغموض متعلق ببعض الألفاظ لا بالتراكيب ؛على أساس أن الطلبة فهموا أن الشاعرة تعاني من الظلم هي وأيتامها . ولكنهم لم يفهموا معنى كلمة ركائب ،شحط على سبيل المثال .و معرفة معانيها يساعد كثيرا على فهم النص وبالتالي تلقيه بشكل جيد .

ولكن عندما نقرأ في مقدمة المحقق لديوان الشاعر " ابن هانيء " هذا النقد، بخصوص خصائص شعره . فيأى أي حد يمكن أن نتقبل نقده ؟ يقول "حمّو أحمد طماس " من خصائص شعره : " سهولة المعاني، وخلوصها من التعقيد، وبعد عن الغموض والتكلف، حيث تجدها سهلة التقبل لدى السامع"<sup>9</sup>. هذا الرأي يجعل النص الشعري "لابن هانيء" نصا سهلا تقبله من قبل السامع ؟ ولكن ماذا لو اخترنا مقطوعات من ديوانه، فهل نسلم بهذا النقد في ضوء قراءتنا لبعض النصوص أم لا ؟

يقول "ابن هانيء" مادحا "المعز لدين الله الفاطمي" في قصيدة بعنوان " هو علة الدنيا ":

لله إحدى الدّوح فاردة ولا      لله محنية ولا جرءـــــــــــــــــاء  
بانت تشنى لا الرياح تمزّما      دوني ولا أنفاسي الصّعداء  
فكأنما كانت تذكر بينكم      فتميد في أعطافها البرحاء  
كل يهيج هواك إما أيكة      خضراء أو أيكية ورقاء<sup>10</sup>  
إذا تساءلنا عن معاني هذه المقطوعة الشعرية، فإلي أي مدى يمكننا الإحاطة

بها؟

ولكي نجيب عن السؤال المطروح قمنا بعرض النص على طلبة السنة الثانية في إطار مقياس الأدب المغرب والأندلسي أيضا، فوجدنا الكثير منهم لم يحيطوا بمعنى النص، مبررين ذلك بعدم فهم بعض المفردات التي جعلت النص الشعري غامضا ؛ والمفردات هي : الدوح ، فاردة ، جرءاء ، البرحاء ، أعطافها ، أيك . إلا أن أحد الطلبة فسر معنى أيكية ، وورقاء . بالحمامة ، من بين كل الحاضرين في الفصل ، وهو معنى صائب .

أما الآراء الأخرى فسرت الدوح بالأشجار أو البستان ، أو نوع من النبات . ولكنها في المقابل غير متأكدة من المعنى الحقيقي .

في رأينا أن المعاني السهلة والخالصة من التعقيد تنجلي بعد أن نقوم بالخطوة الإجرائية الأخرى؛ ألا وهي شرح ألفاظ هذه المقطوعة، وليس بالارتجال فقط . فما هي معاني هذه الكلمات التي قدمناها كنموذج غير مستعمل؟، و ذلك من خلال شرح المحقق لها فجرءاء هي الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل . الدوح وهي الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفرع الممتدة من شجر ما . تشنى أي تشني وتتمايل . الصعداء : المشقة، والنفس الممدودة، أو النفس مع التوجع . الأيكة : مفرد الأيك، وهو الشجر الكثيف المتلف .<sup>11</sup>

نوع آخر من النصوص الشعرية يتميز بالغموض ألا وهو شعر التصوف؛ الذي يحتاج إلى قاموس خاص وشارح، و إلى تعوّد واستمرارية في التواصل. على أساس أن " تعلم القراءة أمر شاق " <sup>12</sup> . و لكن إذا تمعنا في بعض النصوص نستطيع أن نقول إنها تتميز بثنائية هي البساطة والعمق معا . نحاول أن نقف عليها بعد تعريف التصوف . التصوف:

" أو ارتداء الصوف، اسم يطلق على حركة سيطرت على عقول المسلمين وقلوبهم... و ما تزال قوية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي . وقد غدت هذه الحركة أرواح المسلمين و

طهرت قلوبهم " <sup>13</sup> ، و من بين الأمور المرتكز عليها في هذه الحركة " تلاوة القرآن بشكل دائم وتلاوة الشعر العربي وابتهالات الورع والأدعية التي تسبح الله، والتوله بحجة الله وجلال حضوره مما يؤكد عليه الإسلام... " <sup>14</sup> .

وإذا ما كنا قد سلمنا باهتمام أهل التصوف بتلاوة الشعر العربي فهل نجد في ثنايا التراث حركة شعرية لها من التفرد والتميز بالبساطة والعمق مما يجعلها نصا واضحا، و ثم يؤهلها لأن تتبوأ مكانة شعرية مؤثرة في المتلقي ؟ على أساس أيضا " إننا نعيش لتتعلم كيف ننظر، كيف نصغي، كيف نستقبل... " <sup>15</sup> . وللإجابة عن هذا السؤال تم اختيار بعض المقاطع الشعرية بالتركيز على مقاطع من شعر "أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري"، بالاعتماد على كتاب " الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان " لعبد الحميد حاجيات .

ومما جاء في قصيدة الشاعر "أبي مدين" المعنونة ب: دارت علينا كيوس" قوله:

غرس في حضرتي      شجرا من التوحيد

الأصل في قبضتي      والفرع صاريزيد

ولا يجني ثمرتي      إلا ذوي التجريد <sup>16</sup>

تجلى الشعرية الصوفية في قوله: غرست في حضرتي شجرا من التوحيد، فالتوحيد بهذا التصوير شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء؛ بما تتميز به من زيادة ورفعة. فالشاعر استغل خياله بأن أبرز التوحيد وهو من أهم أركان الإسلام في صورة حسية أصلها في قبضته، وفرعها دائم النمو والازدياد، وهذا الفرع فيه من الثمرات التي لا ينالها إلا من تجرد لعبادة الله عز وجل، "و هنا يشبه ناظم القصيدة اعتقاد المريد وتوحيده وزهده بالشجرة القوية وقد أشار بالأصل إلى التمسك بقواعد الإسلام وواجباته، وبالفرع إلى ما يصل إليه المتصوف من الأحوال والمقامات بفضل اجتهاده وزهده".<sup>17</sup> "نما جاء في قصيدته "أنت بما قد سقيت شارب":

يا ساكنا وهو في ارتحال      وكل ما قد حوى يزول  
تسرق من عمرك الليالي      كسرقة الراح للعقول<sup>18</sup>

شعرية توحى باليقين وبالأستعداد للموت؛ وذلك بتذكير المخاطب قائلا: يا ساكنا وهو في ارتحال، وبإيجاد علاقة بين ما تنقصه الليالي من عمر الإنسان وبين سرقة الراح (الخمر) للعقل، أو بتعبير آخر إيجاد علاقة بين الليالي وبين الراح في وجه الشبه المتمثل في السرقة التي من معانيها النقصان.

ومن قصيدته "ركبت بحرا من الدموع" هذه الأبيات :

يا سائق العيس بالحافل      في تلعة البید والقفار  
عرج عن الأربع الأوائل      واقصد بما أشرف الديار  
والماء إن قل في المناهل      أو رمت عند التزلزل نار  
فالتمس الماء من دموعي      فكم لها في الفلا سبيل  
واقتبس النار من ضلوعي      ففي الحشا حشوها شعليل<sup>19</sup>

أبدع الشاعر في البيتين الأخيرين ؛ إذ مهذا لهما بقوله:

والماء إن قل في المناهل      أورمت عند التزلزل نار<sup>20</sup>

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على إبداع يتجلى في علاقته بالبيتين الأخيرين ؛ حيث تبدو شعرية التصوف في بساطة اللغة وعمق المعنى المراد من التصوير؛ فإن أراد المحتاج " في تلة البید والقفار " ماء ونارا يجدهما لدى الشاعر في قوله:

فالتمس الماء من دموعي      فكم لها في الفلا سبيل  
واقبس النار من ضلوعي      ففي الحشا حشوها شعل<sup>21</sup>

التفسير البلاغي لهذا المقطع الشعري يوضح قيمة أسلوبية تتمثل في التمهيد ؛ إذ نجد الشطر الأول (و الماء إن قل في المناهل) تمهيدا للبيت الأول ( فالتمس الماء من دموعي

فكم لها في الفلا سبيل) أما الشطر الثاني(أو رمت عند الزول نار) يعد تمهيدا للبيت الثاني ( واقبس النار من ضلوعي ففي الحشا حشو شعل)، وكل هذه المعاني تعبر عن ما يكابده الشاعر من لوعة الصلة بينه وبين الله تعالى . وبما أنه عالم وخابر بهذه اللوعة فيإمكانه أن يدل الحائرین إلى برالرشاد والتقوى والتجرد والخضوع للخالق عز وجل.

عائق آخر يمكن أن نلحقه بالعوائق الفاصلة بين المتلقي والتص أن يبالغ الشاعر في الرفع من قيمة الممدوح إلى مرتبة مثل مرتبة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ كما ورد في ديوان " ابن هانيء " الذي يمدح المعز قائلاً :

وظفقت أسأل عن أغر محجل      فإذا الأنام جبلة دهماء  
حتى دفعت إلى المعز خليفة      فعلمت أن المطلب الخلفاء  
هو علة الدنيا ومن خلقت له      ولعل ما كانت الأشياء  
من صفو ماء الوحي وهو بحاجة      من حوضه ينبوع وهو شفاء  
ليست سماء الله ما تراونها      لكن أرضا تحتويه سماء  
أما كواكبها له فخواضع      تخفي السجود ويظهر الإيمان  
هذا الشفيع لأمة يأتي بها      وجدودها لجدودها شفاء



هذا أمين الله بين عباده      وبلاده إن عدت الأمناء

هذا الأغر الأزهر المتألق المـ      تدقق المتبلج الوضاء

فعليه من سيما النبي دلالة      وعليه من نور الإله بهاء<sup>22</sup>

في هذه الأبيات لم يجد "ابن هانيء" كي يعلي من مكانة الممدوح ؛ لكي يحوز الرضا إلا أن يستعير له من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجعله يرقى إلى مرتبة تميز بها صلى الله عليه وسلم دون غيره . وعليه فليس الإشكال هنا مطروحا حول معاني النص لأكما واضحة - وهذا يجعلنا في هذا المقام نوافق محقق الديوان فيما ذهب إليه - خاصة وأن "ابن هانيء" يعد من "فحول الشعراء وأمثال النظم وبرهان البلاغة، لا يدرك شأوه، ولا يشق غباره" 23. ولكن الإشكال في تلقي هذا النص من قبل المعارضين لمثل هذا الغلو؟ ولعل ما يفسر نزوع الشاعر إلى هذا الأسلوب الخاص في المدح ما ذكره المحقق عن "الفتح بن خاقان" "فابن هانيء" إلى جانب أنه "روض أدب مطير، غاص في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون ... غير أنه ... تجرد من التدين، وأبدى الغلو فمجتّه الأنفس، وأزعجته بالأندلس، فخرج على غير اختيار... " 24.

وفي الأخير نخلص إلى ذكر أهم الإجراءات في نظري للتلقي الجيد للنص الشعري القديم :

1 - الاهتمام البالغ بالنص الشعري بالحفظ، وذلك أن تقوم المؤسسات التعليمية بمخطوط

هادف وفق دراسات تربوية من أجل أن يتواصل التلميذ مع بعض النصوص إلى أن يبلغ المرحلة الجامعية، فيسهل فيها التلقي الجيد للنص . حتى نتجنب مشكلة قراءة النص وفهمه .

2- أثناء الدرس يقرأ النص قراءات متعددة ؛ كي يزال إلى حد ما الحاجز بينه وبين المتلقي . .

- 3- شرح كل ما يمنع من وصول المعنى كالألفاظ الصعبة .
- 4- محاولة فهم النص وذلك بالإحاطة بلغة العصر وإشاعة بعض استعمالاتها .
- 5- أن تكون الاستمرارية مبدأ من المبادئ التي نؤمن بها، فلا نجعله مثلاً برنامجاً أو ملتقى من الملتقيات يفعل فعله في الجماهير بين استحسان واستجابة، ثمّ ما تلبث أن تزول آثاره

بعد مدّة وجيزة، ربما لا تتجاوز العشرين يوماً .

فتلقي النص الشعري يحتاج دائماً إلى قارئ غموضي، لا يشعر قط بالانفصال عنه، ولا يشعر بمشقة في التواصل . فالطريق إلى النص يحتاج منا إلى أن يكون " كلام النص في حضوره العيني المباشر الآن - هنا ، وليس كلاماً في كلام النص في غيابه عن وعينا، أو غيابنا نحن عنه، وهذا يقتضي أنه عبارة عن كلام قراءة \كتابة، أي كلام قرائي \كتابي، لا كلام شفاهي" .<sup>25</sup>

الهوامش:

- 1- اللغة والتفسير والتواصل، د مصطفى ناصف، عالم المعرفة - سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الكويت، رجب 1415هـ - يناير - كانون ثان 1995 م، ص 249 .
- 2- م ن، ص 295 .
- 3- جماليات التلقي وإعادة إنتاج الدلالة - دراسة في لسانية النص الأدبي - د محمد السيد أحمد الدسوقي، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع : مصر، ط 1، 2007-2008، ص 7 - 8 .

- 4- الجزء الأول من التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي : بيروت لبنان، ط2، 1411هـ - 1990 م، ص 3-4 .
- 5- فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، د حكمة علي الأوسي، مكتبة المعارف : الرباط : المغرب، ط 4، 1983، ص 161 .
- 6- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د أحمد هيكل، دار المعارف بمصر، ط 7، 1993 م، ص 90 .
- 7- فصول في الأدب الأندلسي، (مرجع سابق)، ص 111 .
- 8- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 108 .
- 9- ديوان ابن هانيء الأندلسي 326- 362)، اعتنى به وشرحه حمدو أحمد طماس، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط1، 1426هـ - 2005 م، ص 9 .
- 10- م ن، ص 15 .
- 11- م ن، ص ن .
- 12- اللغة والتفسير والتواصل، ص 294 .
- 13- أطلس الحضارة الإسلامية، د إسماعيل راجي الفاروقي - د لوس لمياء الفاروقي، ترجمة د عبد الواحد لؤلؤة، مراجعة د رياض نور الله، مكتبة العكييات - المعهد العالمي للفكر الإسلامي : الرياض - السعودية، ط 1، 1419هـ - 1998م، ص 425 .
- 14- م ن، ص ن .
- 15- اللغة والتفسير والتواصل، ص 294 .
- 16- كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع : الجزائر، 1982، ص 27
- 17- م ن، ص ن .
- 18- م ن، ص 28 .

- 
- 19- م ن، ص 42
- 20- م ن، ص ن .
- 21- ص 43 .
- 22- ديوان ابن هانيء الأندلسي، ص 16 - 17 .
- 23- م ن، ص 8 .
- 24- ص 9 .
- 25 - في الطريق إلى النص، د. عبد الواسع الحميري، المكتبة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1429 هـ - 2008 م، ص 18.